القاضي عبد الوهاب المالكي (ت 422 هـ)
"حياته وآثاره العلمية"

أ.د.نصر سلمان
الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية ، قسنطينة

ملخص:

يتوخى هذا الموضوع إبراز بعض الجوانب من سير أعلام المذهب المالكي الذين دونوا أسماءهم على صفحات من ذهب في خدمته تدريسا، وتأليفا، وتأصيلا وتقعيدا، مركزين في هذه المداخلة على التعريف بأحد أقطابه البارزين، ألا وهو القاضي عبد الوهاب المالكي الذي سنكشف عن بعض الجوانب العطرة من سيرتيه الذاتية والعلمية.

Résumé:

Ce sujet a pour objet de démontrer les différents aspects de la vie des personnalités Malékites ; qui ont joué un grand rôle par leur enseignement et leurs publications . Notre choix va à l'un des principaux guides de la doctrine Malékite en l'occurrence le Cadi Abdelwahab almaliki . Nous essayons donc de connaître quelques aspects de sa vie et de son contribution scientifique .

إنّ رغبتي الملحّة في خدمة أعلام المذهب المالكي، لا سيما أولئك الذين كان لهم الباع الأكبر في خدمته، ونصرته، هو حلم كان يراودني منذ أَمَدٍ بعيد، وهاهي الفرصة اليوم مواتية من خلال ملتقاكم الميمون الذي خصص شطرا من أشغاله العلمية لأعلام المذهب المالكي ما حدا بنا للكتابة حول حياة رجل كانت له الأيادي البيضاء، والكعب العالي، في خدمة مذهب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ ألا وهو القاضي عبد الوهاب البغدادي، الذي سنحاول في موضوعنا هذا إماطة اللثام عن بعض جوانب حياته العامّة، والعلمية، وهذا من خلال التعرّف على سيرته الذاتية، وآثاره العلمية الكثيرة، وذلك خلال النقاط الآتية:

1 ـ اسمه ونسبه:

هو القاضي المالكي، الفقيه: أبو محمد: عبد الوهاب بن علي بن صر بن أحمد ابن الحسين بن هارون بن مالك بن طوق التَّغلبي البغدادي، من ذرية مالك بن طوق صاحب الرحبة. [1]

والرُّحبة:

هي مكان أقطعه الرشيد لمالك بن طوق، بنى عليه قرية أطلق عليها اسمه، طولها ستون درجة وربع وعرضها ثلاث وثلاثون درجة، بينها وبين دمشق مسيرة ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ، وإلى الرقّة نيف وعشرون فرسخا، وهي بين الرقّة وبغداد على شاطئ الفرات. [2]

2 ـ مولده:

ولد القاضي عبد الوهاب ببغداد، وذلك يوم الخميس، السابع من شهر شوال سنة 362هـ [3]، الموافق للثاني عشر من شهر جويلية سنة: 973م. [4]

3 ـ أسرته:

مما لا شك فيه أنَّ للوسط الذي يعيش فيه الشخص تأثيرا في بناء شخصيته، وتكوينه العلمي، فهذا أبوه من أعيان الشهود المعدلين ببغداد [5]، وأخوه أبو الحسن: محمد بن علي بن نصر أديبا

---

[1] - وفيات الأعيان 220/3، وتاريخ بغداد 5703/11، ومختصر تاريخ دمشق 283/15، وهديةالعارفين 637/1، والبداية والنهاية 32/12، وتبيين كذب المفتري، 250، وسير أعلام النبلاء 429/17 - 430، ومعجم المؤلفين 226/6.

[2] - معجم البلدان 38/3 - 39.

[3] - الكامل 307/7، ووفيات الأعيان 222/3، وهدية العارفين 637/1، والديباج المذهّب 160.

[4] - تاريخ الأدب العربي 94/3.

[5] - الكامل 307/7.

فاضلا، صنف كتاب المفاوضة للملك جلال الدولة أبي منصور بن أبي طاهر البويهي، جمع فيه ما شاهده، وهو من الكتب الممتعة في ثلاثين كراسة. [1]

هذه أسرة القاضي عبد الوهاب، وهي بلا شك توحي بالجو العلمي، والمعرفي الذي كان يحياه في وسطها، والذي أثر في توجهه العلمي والأدبي، فكان عَالِمًا فذا في أصول الشريعة، وفروعها على مذهب الإمام مالك بن أنس، وشاعرا نحريرا تفوق أشعاره في جودتهاما يخطه بنان الكثيرين من فحول الشعراء، والأدباء.

[1] - الديباج المذهب 160، وسير أعلام النبلاء 432/17، ووفيات الأعيان 222/3، وشذرات الذهب 225/3.

4 ـ شيوخه [1]:

لقد أطنب أصحاب كتب التراجم، وأفاضوا في ذكر شيوخ القاضي عبد الوهاب، لا سيما القاضي عياض منهم، وعليه: أقول: إنّ شيوخه لا يحصون كثرة، ولذا فضلنا التركيز على بعض الذين كان لهم الأثر البالغ في تكوينه العلمي عموما، وعلمي الفقه، والأصول خصوصا، فوقع اختيارنا على ثلاثة من الذين كانت لهم اليد الطولى، والباع الكبير في تكوين شخصيته العلمية، وتوجهه لفقه إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وهؤلاء الثلاثة هم:

1 ـ ابن القصّار:

القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد، تفقه بالأبهري، له كتاب في مسائل الخلاف، لا يعرف للمالكيين كتابا في الخلاف أحسن منه، كان ثقة، قليل الحديث، **قال القاضي عبد الوهاب** : تذاكرت مع أبي حامد الاسفراييني الشافعي في أهل العلم، وجرى ذكر أبي الحسن ابن القصار، وكتابه في الحجة لمذهب مالك، فقال لي، ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول، مات سنة: 378هـ. [2]

2 ـ ابن الجلاّب:

وقيل أبو الحسن بن الجلاّب، عبيد الله بن الحسن، وقال الشيرازي : اسمه عبد الرحمن بن عبيد الله، قال الذهبي : "والأول هو الصواب تفقه بالأبهري، من أشهر مؤلفاته التفريغ في المذهب، وله كتاب في مسائل الخلاف، من أحفظ أصحاب الأبهري، وأنبلهم، مات وهو منصرف من الحج في صفر سنة : 378هـ." [3]

3 ـ الباقلاني:

أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي، المعروف بابن الباقلاني، من أصحاب أبي بكر الأبهري، الملقب بشيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب المثبتة، وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري، كان ثقة، إليه انتهت رئاسة المالكيين في عصره، له مؤلفات عديدة منها : إعجاز القرآن، الملل والنحل، البيان عن الفرق بين المعجزة والكرامة، وكشف أسرار الباطنية، مات سنة : 403هـ. [4]

بعد تعريفنا بهؤلاء الشيوخ الثلاثة، نقول : إنّنا نحسب أنهم هم الذين كان لهم التأثير الأكبر في توجهه الفكري، ولذا حاولنا الاكتفاء بهم، دون غيرهم.

5 ـ ثناء العلماء عليه:

لقد حظي بمكانة سامقة لدى أهل العلم والمعرفة، لا سيما أولئك الذين عرفوه عن قرب، أو من خلال كتبه ومصنفاته، فراحوا يتفنّنون في مدحه، والثناء عليه، بعبارات تليق بأمثاله من العلماء العاملين، وهذه باقة عطرة منها نوردها على النحو الآتي:

ـ قال فيه الخطيب البغدادي:

"وكان ثقة، ولم نلق من المالكيين أحدا أفقه منه، وكان حسن النظر، جيّد العبارة ..."[5].

ـ وقال ابن بسّام:

"كان أبو محمد في وقته بقية الناس، ولسان أصحاب القياس، وهو أحد من صرّف وجوه المذهب المالكي، بين لسان الكنانيّ، ونظر اليونانيّ، فقدّر أصوله، وحرّر فصوله، وقرّر جمله وتفاصيله، ونهج فيه سبيلا كانت قبله طامسة المنار، دارسة الآثار، وكان أكثر الفقهاء، ممن لعلّه كان أقرب سندا، وأرحب أمدا، قليل مادة البيان، كليل شباة اللسان، قلّما فصّل في كتبه غير مسائل يلقفها، ولا يثقفها، ويبوبها ولا يرتبها، فهي متداخلة النظام، غير مستوفاة الأقسام، وكلّهم قلّد أجرما اجتهد، وجزاء ما نوى واعتقد". [6]

---

[1] ـ ينظر في تعداد شيوخه : تاريخ بغداد 5703/11، ووفيات الأعيان 220/3، والكامل 307/7، وتاريخ الأدب العربي 94/3، وتاريخ الإسلام 85/28، وتبيين كذب المفتري 250، وشجرة النور الزكية 104 وسير أعلام النبلاء 430/17، وترتيب المدارك 692/4.

[2] ـ ترتيب المدارك 692/4.

[3] ـ العبر 153/2، وترتيب المدارك 605/4، وشذرات الذهب 93/3، والنجوم الزاهرة 137/7.

[4] ـ الديباج المذهب 267، وترتيب المدارك 585/4 ـ 602، ووفيات الأعيان 481/1.

[5] ـ تاريخ بغداد 11/ 5704.

[6] ـ الذخيرة 515/2/4.

ـ وقال الشيرازي :

"أدركته، وسمعت كلامه في النظر، ...وكان فقيها متأدبا، شاعرا، وله كتب كثيرة في كلّ فنّ من الفقه". [1]

ـ كما قال ابن فرحون :

"وكان حسن النظر، جيد العبارة نظّارا، ناصرا للمذهب، ثقة، حجة، نسيج وحده، وفريد عصره". [2]

ـ كما كان أبو بكر الباقلاني يعجبه حفظ أبي عمران الفارسي، القيرواني، ويقول : "لو اجتمـع في مدرستي هو، وعبد الوهاب، لاجتمع علم مالك، أبو عمران يحفظه، وعبد الوهاب ينصره". [3]

ـ وقال ابن حزم :

"لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي، إلاّ عبد الوهاب، والباجي لكفاهم". [4]

بعد إيرادنا لما قاله فيه بعض العلماء من مدح وثناء، يمكننا أن نكوّن صورة، ولو بسيطة، عن تلك المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، التي كان يتبوأها القاضي عبد الوهاب في أوساط العلماء، ومحافل العلم، والمعرفة.

6 ـ نماذج لمروياته المسندة :

كان القاضي عبد الوهاب،فقيها متضلعا، ورغم انشغاله الكبير بالفقه، فإنه كان مشاركا في بعض العلوم الأخرى إذ حدّث ببعض الأحاديث، التي رواها متحمّلا إياها عن طريق الإسناد المتصل من لدنه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا نموذج لذلك:

ما رواه الخطيب البغدادي، حيث قال: أخبرنا أبو محمد بن نصر في سنة : ثلاث عشرة وأربعمائة، أخبرنا عمر بن محمد بن إبراهيم البجلي، حدثنا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، حدثنا علي بن عبد الله المدني، حدثنا يحي بن سعيد، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا عبد الرحمن بن مهران عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "الأبعد فالأبعد إلى المسجد أعظم أجرا". [5]

7 ـ توليه منصب القضاء:

لم يكن تولي منصب القضاء بالأمر الهيّـن عبر العصور المتعاقبـة في تاريخ المسلمين، بل كان يختار له، من يكون أهلا لذلك من ذوي العلم الغزير، والمعارف الواسعة، والدين المتين، فكان مترجمنا ـ رحمه الله تعالى ـ من أولئك العلماء العاملين، الذين تولوا قضاء كثير من المناطق، إذ ولي قضاء الدينور، وبادرايا، وباكسايا، وهي بليدات صغيرة من أعمال العراق، كما ولي قضاء أسعرد، وهي كلها تصغر عن قدره، ومكانته العلمية الرفيعـة، كمـا ولي في آخر عمره قضاء المالكية بمصر، التي استمرّ فيها قاضيا لحين وفـاته. [6]

وقد كان أثناء فترات قضائه مثالا حيا، وأنموذجا صـادقا لصـورة القـاضي العـادل، الذي لا يخشـى في قضائه أحدا إلاّ الله، همّه في ذلك إنصاف المظلوم من الظالم، مهما كانت مكانة الظالم الاجتماعية، أو سطوته السلطانية.

8 ـ نماذج من جيد شعره:

لقد عانق الثريا بأشعاره الجياد، وناطح السحاب وجاوز الفرقدين، فهو أحد فحول الشعراء، الذين يجري القريض على ألسنتهم، كما يجري الماء الرقـراق في شرعته، إذ لم يترك غرضا شعريا، إلاّ وأخذ منه بحظّ وافر، وهذه بعض النماذج الشعرية، الدالة على علوّ كعبه في هذا الميدان:

1 ـ في الغزل المطعّم بلغة الفقهاء،

---

[1] ـ طبقات الفقهاء 168.

[2] ـ الديباج المذهب 159.

[3] ـ شجرة النور الزكية 104.

[4] ـ الديباج المذهب 121، وشجرة النور الزكية 120.

[5] ـ تاريخ بغداد، 5704/11، ومختصر تاريخ دمشق 283/15 ـ 284.

[6] ـ البداية والنهاية 32/12، والديباج المذهب 159، ووفيات الأعيان 222/3، والكامل 307/7.

إذ فيه إشارة فقهية إلى وجوب ردّ المغصوب :

ونائمة قبّلتهـا فتنبّهت فقالت تعالوا واطلبوا اللصّ بالحدّ
فقلت لها: إنّي فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الردّ
خذيها وكفّي عن أثيم ظلامة وإن أنت لم ترضي فألفا على العدّ
فقالت: قصاص يشهد العقل أنّهعلى كبد الجانـي ألذّ من الشهد
فباتت يميني وهي هميان خصرها وباتت يساري وهي واسطة العقد
فقالت : ألم أخبر بأنـك زاهد فقلت: بلى مازلت أزهد في الزهد. [1]

وقال أيضا :

متى أخف الغرام يصفه جسمي بألسنة الضنـى الخُـرس الفصـاح
فلو أنّ الثياب فحصـن عنّـي خفيت خفاء خصـرك في الوشـاح. [2]

2 ـ في الحكمة ومصارعة الحياة :

طلبت المستقرّ بكلّ أرض فلم أر لي بـأرض مستقرّا
ونلت من الزمان ونال منّـي فكان منالـه حلوا ومـرّا
أطعت مطامعي فاستعبدتـني فلو أني قنعت لكنت حرّا. [3]

3 ـ في الزمن وكيفية رفعه للوضعاء على حساب الشرفاء:

متى تصـل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثـني الأصاغر عن مراد وقد جلـس الأكابر في الزوايا
وإنّ ترفّع الوضعـاء يـومـا علـى الرفعاء من إحدى البلايا
إذا اسـتوت الأسافل والأعالي فقد طابت منادمـة المـنايـا . [4]

4 ـ في الصفح والعفو بين الإخوان:

هبـني أسـأت كمـا زعمـتَ فـأيـن عـاقبـة الأخوّة
ولئـن أسأتَ كمـا أسـأتُ فأيـن فضلـك وامـروّة.

---

[1] ـ فوات الوفيات 420/2 ـ 421، وتاريخ الإسلام 87/28، وشذرات الذهب 224/3، والبداية والنهاية 33/12، وسير أعلام النبلاء 431/17، وأحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين 1114/2.

[2] ـ الذخيرة 528/2/4.

[3] ـ الديباج المذهب 160.

[4] ـ (22) شجرة النور الزكية 104، والديباج المذهب 160، وفوات الوفيات 420/2.

5 ـ في القناعة وخدمة العلم:

يالهف نفسي على شيئين لو جمعا عندي لكنت إذن من أسعد البشرِ
كفاف عيش يقيني كلّ مسألـة وخدمة العلم حتى ينقضي عُمُـري.

6 ـ في المودّة الخالصة لوجه الله تعالى :

وكلّ مــودّة في الله تبـقى على الأيـام من سعة وضيق
وكـلّ مودّة فيمـا سـواه فكالحلفـاء في لهب الحريق. [1]

هذا غيض من فيض من أشعاره الكثيرة، المتناثرة في بطون كتب التراجم وأمهات كتب السير، ولا أكون مبالغا إن قلت : إنه بأشعاره الكثيرة، والجيّدة حقيق بأن يصنف في المصفّ الأول ضمن فحول الشعراء، وكبار الأدباء.

9 ـ مراسلاته مع بعض الملوك :

رغب ـ رحمه الله تعالى ـ في الانتقال من بغداد لمصر، وذلك لكونه كان على مذهب مالك، وهو مذهب صحيح، ومتجر رابـح، فكثرت عليه القالــة في ذلك، ولكنّه أثناء قدومه مكة المكرّمة لأداء فريضة الحج بلغه أنّ المستنصر بالله صاحب مصر مدحض لمذهب مالك، وأنه متوعّد أتباعه، والمنافحين عنه بأليم المهالك، فكتب إليه مستوثقا راغبا في الكشف عن ذلك بكتاب منه، حتى يقدم على مصر على هدى وبصيرة من أمره، فكتب للمستنصر بما يأتي:

"حصّن الله المؤمنين من الشيطان بِجُنَنِ الطاعة، ودثّرهم من قرّ وسواسه بسرابيل القناعة، ووهبهم من نـعمــه مـددا، ومن توفيقـه رشدا، وصيّرهم إلى منهـج الإسـلام وسبيلـه الأقـوم، وجعلهـم مـن الآمنين، فيما هم عليه موقوفون، وزيّنهم بالتثبت فيما هم عنه مسؤولون" {**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**}. [2]

كتابي إليك من الجبّ بإزاء مصرك، وفناء برّك، بعد أن كانت بغداد لي الوطن والألفة والسكن، ولمّا كُنتُ على مذهب صحيح، ومتجر ربيح، كثرت عليّ الخوارج، وشقّ على الماء ارتقاء المناهج، {**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**} [3]، فأتيت مكة حرسها الله، لكي أقضي فرض الحج، من عجّ وثجّ، أسأل الله تعالى القبول، وكيف وإنما يتقبل الله من المتقين، وقد كنتَ عندي ذا سنة ودين محبًّا في الله تعالى، وفي النبيّين، وفي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمهديين فورد الناطقون، وأتى المخبرون بخبر ما أنت عليه، فذكروا أنك مدحض لمذهب مالك، موعد لصاحبه بأليم المهالك، هيهات هيهات {**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**} [4]، فأبيتُ القبول على أمر لم يصحّ بيانه، لكثرة الكذب في الدنيا، وإذ لا يحلّ لمسلم أن يموت طوعا، فأردتُ الكشف عن ذلك بكتاب منك، والسلام على من اتبع الهدى. [5]

ردّ المستنصر بالله على كتابه:

لما بلغ كتابه صاحب مصر، ردّ عليه، بما يليق بمقامه العلمي، مادحا بلاغته، التي كست رسالته إليه، وخطّه الجميل الذي زيّن به سطور كتابه، معطيا إيّاه الأمان على مهجته داعيا له بالسلامه وطول العمر، وهذا شطر مما ورد في ردّ المستنصر بالله على كتابه:

"حرص الله مهجتك، وطوّل مدّتك، وقدّم أمير المؤمنين إلى المنية قبلك، وخصه بها دونك، ورد كتابك المكرّم، وأتى خطابك المعظّم، يفصح البكم، وينزل العُصْم هبّت عليه رياح البلاغة فنمقّته، ووكفت عليه سحائب البراعة، فرقّقته، فياله من خطّ بهيّ، ولفظ شهي، تذكر فيه حسن ظنونك بنا، وتثبيت مآثرنا، فلمّا أن عرّست بإزائها، ورد من فسخ عليك، فخذ بظاهر ما كان عندَك ورِدْ، ودع لربّك علم ذات الصدور، والسلام. [6]

10 ـ تلاميذه:

---

[1] ـ الذخيرة 528/2/4 و 524 و 523.
[2] ـ فصلت : 46.
[3] ـ الحج : 40.
[4] ـ الزّمر : 30 - 31.
[5] ـ الذخيرة 520/2/4.
[6] ـ المصدر نفسه 520/2/4 - 521

لقد كتب الله تعالى للقاضي عبد الوهاب القبول في الأرض، فأقبل عليه طلبة العلم، ينهلون من معين علمه الجم، ومعارفه الغزيرة، مشبعين بذلك نهمهم العلمي، ورغبتهم الملحة في طلب المزيد مما عنده من كنوز علمية دفينة، ونظرا لإقبال الراغبين في الأخذ والتتلمذ على يديه فإني أقول: إنهم لا يحصون كثرة، ولذا سوف نقتصر على ذكر بعضهم على النحو الآتي:

1 ـ الخطيب البغدادي:

أبو بكر : أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد، المعروف، بالخطيب البغدادي، محدث بغداد، ومؤرخها، وصاحب التصانيف الكثيرة كالكفاية، وتاريخ بغداد وغيرهما، مات سنة: 463هـ. [1]

2 ـ ابن عمروس:

أبو الفضل: محمد بن عبد الله بن محمد بن عمروس البغدادي، أحد فقهاء المذهب المالكي، والمبرّزين فيه، إليه انتهت مقاليد الفتوى ببغداد، وكان زيادة عن تبحرّه في الفقه، متضلعا في القراءات، إذ كان من القرّاء المجوّدين، مات سنة 452هـ. [2]

[1] - تذكرة الحفاظ 3/ 1135، والبداية والنهاية 101/12 - 103 ومرآة الجنان 88/3.

[2] - تاريخ بغداد 339/2، وسير أعلام النبلاء 73/18، والإعلام بوفيات الأعلام 301/1.

3- ابن سماخ :

القاضي أبو عبد الله الغافقي محمد بن الحسن الحبيب بن سماخ، كان من أهل العلم، والفقه، والفضل، له رحلة لقي فيها القاضي عبد الوهاب، أثنى عليه فقهاء قرطبة، ووصفوه بالعلم، والفضل والسداد فيما تولاه. [1]

4 - عبد الحق بن هارون: أبو محمد: عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي، من أهل صقلية، حجّ مرّتين، فلقي في إحداهما أبا محمد عبد الوهاب بن نصر، وأباذر الهروي، له مؤلفات عديدة منها: النكت، الفروق لمسائل المدونة، تهذيب الطالب في شرح المدونة، الذي نبّه فيه على ما استدركه على كتاب النكت، مات بالاسكندرية سنة 466هـ. [2]

11- رحلته من بغداد لمصر :

قال القاضي عبد الوهاب، لأهل بغداد ساعة توديعهم له: "لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كلّ غداة وعشية، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية".

من خلال مقولته هذه، يتضح أنه ما ترك بغداد عن زهد فيها، وإنما دعته الفاقة، والحاجة لمغادرتها طلبا للرزق، الذي يسدّ رمقه، ويحفظ ماء وجهه عن ذلّ السؤال، ومما يؤكد حبه لبغداد، وأنّ ضرورة الفقر دفعته للرحيل عنها وإلا لما كان يعدل بها غيرها قوله :

سلام على بغداد في كلّ منزل وحقّ لها منّـي السلام المضاعـفُ
لعمرك ما فارقتها عن قلى لهـا وإنّـي بشـطّي جانبيـها لعـارفُ
ولكنّها ضاقت عليّ بأسـرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعـفُ
وكانت كخلّ كنت أهوى دنوّه وأخلاقـه تنـأى بـه وتخـالفُ. [3]

وكذا قوله :

بغـدَاد دار لأهل المال طيّبـة وللمفاليس دار الضنـك والضيـق
ظللت حيران أمشي في أزقّتهـا كأنّني مصحـف في بيت زنـديـق [4]

ولمّا أكثروا عليه اللوم في مغادرته لوطنه الأم بغداد، محتجين بكونه لو كان صادقا في حبه لبلاده، وتعلّقه بها لما رحل عنها لغيرها، فردّ عليهم، في ذلك، مبرّراً ضعنه عنها بقوله:

وقائلة : لـو كان ودّك صـادقا لبغـداد لم ترحـل فكان جـوابيا
يقيم الرّجال الموسرون بأرضهم وتـرمي النوى بالمقتريـن المراسيـا
وما هجـروا أوطـانهم عن ملالة ولكن حذارا من شمات الأعاديـا. [5]

وأثناء رحلته هذه مرّ بدمشق مجتازا إلى مصر، وكان ذلك سنة: 419هـ، وذلك في شوال، وخرج منها في جمادى الأولى سنة: 420 هـ [6]، إذ لم يدم بقاؤه فيها غير ثمانية أشهر.

كما اجتاز في طريقه بمعرّة النعمان، وبالمعرّة يومئذ أبو العلاء المعرّي، فأضافه، وأكرم وفادته، ونزله، وخصه بشيء من لزومياته، ومن جملة ما قاله أبو العلاء في ذلك :

والمالكيُّ ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنـا النـأي والسفـرا.
إذا تفقه أحيـا مالكـا جدلا وينشر الملـك الضلّيـل إن شعـرا. [7]

وهكذا واصل القاضي عبد الوهاب طريقه لمصر، حيث ولي قضاء المالكية بها، وفتحت عليه الدنيا، وأقبلت تجرّ أذيالها على عتباته، وأدبر الضيق والضنك، إلاّ أنّ هذه الحال لم تدم طويلا، إذ كان ريب المنون له بالمرصاد، حتى أنه نقل عنه قوله لمّا حضرته الوفاة : "لا إله إلا الله لمّا عشنا متنا".

---

[1] - ترتيب المدارك 830/4.

[2] - المصدر نفسه 774/4 - 776.

[3] - وفيات الأعيان 3/ 220، والمنتظم 221/15، وطبقات الفقهاء 169، ومختصر تاريخ دمشق 284/15، وتاريخ الإسلام 86/28، وشذرات الذهب 224/3، والبداية والنهاية 32/12، وتبيين كذب المفتري 250.

[4] - فوات الوفيات 420/2، والكامل 307/7.

[5] - ترتيب المدارك 694/4.

[6] - المصدر نفسه.

[7] - شجرة النور الزكية 104، وسير أعلام النبلاء 430/17، وتاريخ الإسلام 86/28 - 87، ووفيات الأعيان 220/3، وفوات الوفيات 420/2، وشذرات الذهب 224/3، وأحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين 1114/2

وهنا ننبه إلى أنه يوم ترك بغداد كانت وجهته أرض المغرب العربي، لا سيّما وأن ابني ابن أبي زيد القيرواني طلبا منه ذلك، رغبة منهما في إكرامه، وذلك لاعتنائه، وشرحه لكثير من تراث أبيهما، وكان القاضي هو الآخر يرغب في القدوم لأرض المغرب، ولكنه لمّا حطّ الرجال بأرض الكنانة مصر، ووصفت له أرض المغرب زهد فيها، لأنه وجد ضالته المتمثلة في سعة العيش بمصر وخشي إن رحل لأرض المغرب أن لا يتسع حاله، ولذا ردّ على ابني الشيخ ابن أبي زيد القيرواني لما دعواه بقوله:

وكلّ مودّة في الله تبقى ... على الأيام من سعة وضيق
أنا ذاك الصديق لكن قلبي ... عن قرب الديار ليس بقلب
ما انتفعنا بقربكم ثم لا لوم ... عليكم وإنّما الذنب ذنبي
أنا في حطة وأسأل ربّي ... في خلاصي من شرّها ثم حسبي. [1]

12- آثاره العلمية :

كان ـ رحمه الله تعالى ـ أحد المكثرين، الذين ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية، بجهود عظيمة، يعترف بها القاصي والداني، وإنّ من أجلّ تلك الجهود مصنفاته العلمية، التي تلقاها العلماء عنه بالقبول، والاستحسان وسنحاول تسليط الضوء على هذه المؤلفات، موردين إيّاها على النحو الآتي:

أولا : آثاره المطبوعة :

1 ـ المعونة على مذهب عالم المدينة "الإمام مالك بن أنس"، تحقيق ودراسة حميش عبد الحق.ط : المكتبة التجارية لمصطفى أحمد الباز مكة المكرّمة.

2 ـ الإشراف على مسائل الخلاف، طبع مطبعة الإرادة.

3 ـ التلقين في الفروع، وهو مع صغر حجمه، من خيار الكتب، وأكثرها فائدة. ط: المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

ثانيا : آثاره غير المطبوعة: وهي كثيرة منها :

4 ـ عيون المسائل. [2]
5 ـ الجوهرة في المذاهب العشرة. [3]
6 ـ شرح المدونة لم يتمّه.
7 ـ الأدلة في مسائل الخلاف. [4]
8 ـ المعرفة في شرح الرسالة. [5]
9 ـ النصرة لمذهب إمام دار الهجرة. [6]
10 ـ غرر المحاضرة ورؤوس مسائل المناظرة.
11 ـ شرح فصول الأحكام.
12 ـ اختصار عيون المجالس. [7]
13 ـ الممهّد في شرح مختصرابن أبي زيد القيرواني صنع نحو نصفه.
14 ـ شرح التلقين لم يتمّه.
15 ـ الإفادة في أصول الفقه.
16 ـ التلخيص في أصول الفقه. [8]
17 ـ البروق في مسائل الفقه. [1]

---

[1] ـ المصدر نفسه 308/4. ترتيب المدارك 694/4.

[2] ـ إيضاح المكنون، 134/2، وهدية العارفين 1/ 637، وفوات الوفيات 2/ 419 ـ 420، والأعلام، 184/4، ومعجم المؤلفين 227/6، وشجرة النور الزكية، 104، وترتيب المدارك 692/4، والديباج المذهب 160.

[3] ـ هدية العارفين 637/1.

[4] ـ فوات الوفيات 420/2، وتاريخ الأدب العربي 94/3، وهدية العارفين 637/1، وشجرة النور الزكية 104، والديباج المذهب 159 ـ 160، ومعجم المؤلفين 227/6.

[5] ـ سير أعلام النبلاء 17/ 430، وفوات الوفيات 419/2.

[6] ـ ترتيب المدارك 692/4، والديباج المذهب 159.

[7] ـ تاريخ الأدب العربي 94/3، والأعلام 184/4.

[8] ـ شجرة النور الزكية 104، وترتيب المدارك 692/4.

18 - الردّ على المزني.
19 - المفاخر في الأصول.
20 - المروزي في الأصول. [2]

13 - وفاته : توفي ليلة الإثنين الرابع عشر من صفر سنة 422هـ بمصر[3] الموافق للحادي عشر من شهر فيفري سنة : 1031م. [4]

وقيل في شعبان من نفس هذه السنة[5]، كما روي أنّ سبب وفاته، كان من الإكثار من أكلة اشتهاها [6]ولمّا جاءه النزع، وتضاعف عليه الألم، وشعر أنه ملاق حتفه لا محالة دون أن يتنعّم، ويتمتع بالدنيا، وقد فتحت عليه بعد ضيق فقال : "لا إله إلاّ الله لمّا عشنا متنا".[7]

هكذا قضى القاضي عبد الوهاب نحبه، ليدفن في مصر بالقرافة الصغرى قريبا من قبر كل من الإمام الشافعي [8]، وابن القاسم، وأشهب[9] ، بعيدا عن الأهل والخلان، الذين خلفهم بمدينة السلام بغداد.

وهكذا يموت العظماء، والعلماء العاملون، تاركين وراءهم ذكرا حسنا، وعلما مبثوثا يبقى لهم صدقة جارية تدرّ عليهم المثوبة والأجر إلى قيام الساعة.

وفي الختام :

نحسب أننا طوّفنا بحياة القاضي عبد الوهاب، وكشفنا النقاب عن الكثير من جوانب حياته العامة، وكذا العلمية، سائلين المولى تبارك وتعالى أن ييسّر لنا التعريف بعلم آخر من أعلام المذهب المالكي، هذا المذهب الذي يتبعه جلّ سكان المغرب العربي عموما، وبلدنا الحبيب الجزائر خصوصا.

---

[1] - الديباج المذهب 160، وشجرة النور الزكية 104.
[2] - ترتيب المدارك 692/4.
[3] - وفيات الأعيان 222/3.
[4] - تاريخ الأدب العربي 94/3.
[5] - المنتظم 221/15، ووفيات الأعيان 222/3، والعبر 2/ 248.
[6] - الكامل 307/7.
[7] - الديباج المذهب 159.
[8] - شذرات الذهب 224/3.
[9] - الديباج المذهب 160.